خيانة البطولة .. بطولة الخيانة

خارج الرأي العام، خارج قاعات المحاكم والملفات، بكل العالم وبمعزل عنه، يجلس المرء في نفسه وحيدا ساخطا، يبحث عن وجه للبركة فتجحظ من حوله اللعنات ويحتشد الظلام ملء البؤبؤين، يتسلل الى الشبكية، الى الدماغ ويتفجر في القلب.

إنه الاختلاط الباهظ في المفاهيم، تبادل الادوار المسف، الأختلال الكامل في الاعراف وسقوط المقولات تباعا. انه الحزن الناجز عاريا واضحا، مفهوما وغير مفهوم.

مسائل شتى تقبل وتمضي، يندلق كثير من الحبر وكثير من الدم، فينتصر "السكوب" الصحفي، ويثري الاعلام. تتكرس المعلومة، اما الانسان موضوع هذه المعلومة وغايتها فينقذف بقوة صاروخية الى مكان ما من هذه الارض مسحوقا مثل عقب سيجارة او محتقنا مثل بالون عائم في الفضاء.

أما أنت، الشخص، مواطن العالم المنفي عن العالم، فلا يبقى لك سوى هذا الجلوس الكئيب في نفسك الكئيبة وحيدا ساخطا على شفير البكاء.

قلت، مسائل شتى تقبل وتمضي. تشحن الناس بالاثارة وتنطفيء مع رنين التلفون، مع نداء ما، مع صوت ما، ويعود كل شيء الى

مجراه.

ومن المسائل التي اقبلت ومضت واحدة لا تكف عن مطاردتي رغم انها اصبحت "خبرا قديما" وفق المقاييس الاعلامية. ولهذه المسألة اسمان: "شرانسكي" و"فعنونو".

شيرانسكي:

مواطن سوفييتي. قصير القامة، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. سمع اذاعات "العالم الحر" ووصلته الدعاية الصهيونية سرا وعلنا فقرر اعلان الحرب على الاتحاد السوفييتي -وطنه، وقدم اخيرا الى بلادنا من اجل ترحيل اكرم هنية. واصبح شيرانسكي بطلا قوميا في اسرائيل وقابله زعماء "العالم الحر" من ريغن حتى تاتشر حتى كل موظف في اي قلم استخبارات يضمر الشر للعدالة والاشتراكية والسلام، لا لشيء الا لان مخصصاته الشهرية تتناقض مع العدالة والاشتراكية والسلام.

واصبح شيرانسكي شخصية دولية هامة. ونجما تلفزيونيا ومعلقا سياسيا يقرأ في المؤتمرات الصحفية تصريحات مكتوبة ويستطيع الارتجال ايضا. انه بطل قومي فقد ألحق الضرر بالاتحاد السوفييتي!!

فعنونو:

مواطن اسرائيلي معتدل القامة، يميل الى الطول، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. عمل خبيرا في مفاعل ديمونا النووي ادرك إن اسرائيل تنتج سلاحا نوويا. وبحس انساني بسيط، تملكه القلق. ولعله فكر في اثناء العمل: لماذا هذا السلاح النووي، ألضرب العرب؟ لكن العرب قد يمتلكون هم ايضا سلاحا نوويا وقد يضربوننا، فماذا ستكون المحصلة؟ دمارا هنا؟ دمارا هناك؟ هل خسارة العرب هي بالضرورة فائدة لليهود؟ هل سيخسر العرب

وحدهم؟ الا تكفي اليهود خساراتهم السابقة؟

وفي دوامة القلق هذه يبحث فعنونو عن متنفس لمخاوفه. ولانه لا يتجاوز قيمة البرغي الصغير في الة هائلة فلا يجد امامه سوى الخروج الى العالم الكبير. هناك يهمس وهناك يصرخ، مؤمنا انه بتحركة الضئيل هذا يفعل شيئا من اجل السلام شيئا ما. لا لصالح العرب بل لصالح اليهود اولا وقبل كل شيء.

برغي صغير يتمرد على آلته. أهي البطولة أم انه الجنون؟ أهي البطولة ام انها الخيانة؟ خيانة ماذا؟ خيانة من؟ ما هي البطولة؟ ما هي الخيانة؟

فعنونو- مردخاي فعنونو، هو اليوم سجين رهن المحاكمة في اسرائيل بتهمة الخيانة العظمى! إنه أسير آلته وهو أسير قلقه. الا إنه سجين لدى نظام "ديمقراطي". ما هي الديموقراطية؟ ولديه محام يدافع عنه. ويصف المحامي اوضاع موكله اليوم:

"يجلس ٢٢ ساعة يوميا بين اربعة جدران. اصدقاؤه الوحيدون هم الصراصير وحشرات الزنزانة. مرة كل اسبوعين يسمحون لابناء اسرته بالزيارة، وحينذاك ايضا يقف الى جانبه سجان بيد ممدودة، حتى يغلق له فمه وقت الضرورة. لا كتب عنده ولا تجوز له قراءة الصحف".

عشنا هذه التجربة. عشناها على جلودنا واعصابنا. مضغتنا هذه الدوامة ومضغناها. تساءلنا ونتساءل: اين تقع البطولة؟ اين تقع الخيانة؟

آخ.... يا جغرافيا الروح الضائعة

«الاتحاد» ١٩٨٧/١/٢٣